رؤيا مرزا

من مجلة الناظر الانكليزية

نهضت ذات يوم من النوم واغتسلت وصليت الصبح ثم صعدت جبلاً من جبال بغداد لاقضي بقية نهاري بالتأمل والدعاء الى الله . وحينما كنت اتنسم نقي الهواء اخذت افكر في بطلان الحياة الدنيا وبعد التبصُّر الطويل قلت في نفسي ما الانسان الاَّ ظل زائل وما الحياة الاَّ حلم عابر . وبينما كانت هذه الافكار تخامر قلبي التفتُّ الى قمة صخر على مقربة مني فرأيت رجلاً يزيّ راعٍ وفي يده مزمار يضرب فيه الحانًا مطربة لم اسمع ما يضاهيها ذكرتني بتلك الالحان السحرية التي تلاقي انفس الصالحين المنتقلة الى الفردوس عند وصولها اليه لتمحو ما بقي في النفس من مغض الاحتضار وتؤهلها للذَّات ذلك المكان السعيد فذاب قلبي بهجةً وحبورًا

وكنت قد سمعت كثيرًا ان ذلك الصخر معهد جنيّ سمع بعض الناس عزفهُ ولم يروهُ . واذ كنت انظر الى الراعي نظرة المدهوش اومأ اليَّ بيده ان اقترب منهُ فاقتربت وطرحت نفسي عند رجليه وبكيت . وعند ذلك انهضني وتبسم وعلى وجهه لوائح الرأفة والرفق واخذني بيده وقال يا مرزا قد سمعتك في مناجاتك اتيعني

ثم اخذني الى اعلى قمة الصخر واوقفني عليه وقال انظر الى الشرق وقل لي ماذا ترى قلت ارى وادياً فسيحًا يجري فيه نهر عظيم . قال ان الوادي الذي تراهُ هو وادي الشقاء والنهر الذي تراهُ هو قسم من مجرى الزمان . ثم سألتهُ ما السبب في ان هذا النهر يصدر من غمامة كثيفة عند الطرف الواحد وينتهي الى غمامة كثيفة عند الطرف الآخر . فقال ان ما تراهُ هو جزءٌ من الابدية يقال لهُ الزمان الذي تقسمهُ الشمس اقسامًا وهو يمتد من اول العالم الى آخره . ثم قال انظر الى هذا النهر العظيم الذي يحدّ الظلام طرفيه واخبرني ما ترى . قلت جسرًا ممتدًّا فوق منتصف النهر قال هذا الجسر هو حياة الانسان امعن بصرك فيه . فامعنت بصري فرأيت انهُ مؤلف من مئة عقد قطرة كاملة وثلاثين مخرّبة متصلة بها ونظرت خلقًا كثيرًا سائرين عليه وسحابة مظلمة تكتنف كلاً من طرفيه . واذ كنت أُحدّق اليهم شاهدت كثيرين من المارّين يسقطون من خروق مستورة في الجسر الى النهر العظيم الجاري تحتهُ ثم يختفون في الحال . وكانت هذه الطروق الخبأة كثيرة عند مدخل الجسر بحيث ان كثيرين من الخلق لم يكادوا يخرجون من السحابة الاَّ سقطوا فيها ثم قلَّ عددها في منتصف الجسر ثم

كثرت وانضمّ بعضها الى بعض عند منتهى القناطر السبعة. واما القليلون الذين بلغوا القناطر المتهدمة فكانوا يجتمعون عليها ويسقطون الواحد بعد الآخر اعياء منهوكين من طول السير

قضيت مدة من الزمان وانا اتأمّل في هذا البناء العجيب وحزنت شديداً لما رأيت كثيرين يسقطون على حين غفلة وهم فرحون طربون ويحاولون التمسك بشيء امامهم يجبون من المبوط . وكان بعضهم ينظرون الى العلاء ويفتكرون بامور عقلية فما لبثوا ان عثروا وسقطوا واختفوا . وكان الكثيرون منهم مهتمين بمطاردة فقاقيع تلمع امام عيونهم حتى اذا ظنوا انهم كادوا يبلغونها زلقت ارجلهم وهبطوا

ولما رآني الجني شاغلاً نفسي بهذا المنظر المحزن قال كفاك ارفع بصرك عن الجسر وانظر هل ترى شيئاً لا تفهمهُ فتطلّعت الى فوق وقلت ما معنى كثرة هذه القبور والعقبان والغربان والاولاد الجمجمة التي تحوم حول الجسر وتحط على منتصف قناطره قال هي الحسد والطمع والخرافات واليأس والعشق وغيرها من السموم والاهواء التي تغزو الانفس وتغويها. فتنفست الصعداء وقلت واسفاه خلق الانسان عبثاً يعذّب في الحياة ويتألّم في الموت

ولما رآني الجني في هذه الحالة حزن عليّ وقال لا تعد تنظر الى الانسان في دوره الاول من الوجود وهو يشرع في السير نحو الابدية بل التفت الى ذلك الضباب الكثيف الذي يحمل النهرُ اليهِ كل اجيال الناس الذين يقضون فيهِ . فالتفت كما أُمرت ولا اعلم هل قوى ذلك الجني بصري او هل ازاح بعض الضباب الذي لم تستطع عيني ان تخترق ظلامهُ قبلاً فاني رأيت الوادي منفرجاً عند طرفهِ البعيد ومنتشراً على هيئة بحر فسيح يشتهُ صفر صلد عظيم ويقسمهُ الى قسمين متساويين . وكان النصف الواحد لا يزال مكتنفاً بالغيوم الحالكة فلم استطع ان ارى فيهِ شيئاً. واما النصف الآخر الذي انقشعت عنهُ السحب فرأيتهُ بحراً زاخراً تعلوهُ جزر لا تحصى مغطّاة بالاشجار والازهار ورأيت فيها الناس عليهم حلل من الياس الفاخر وعلى رؤوسهم اكاليل وهم يمشون بين الاشجار ويتكئون على جانب الانهار او يستلقون على اسرّة من الازهار وسمعت تغريد الطيور وخرير المياه واصوات البشر وآلات الغناء . ففرحت بما رأيتهُ من ذلك المنظر البهيج وتمنيت جناحاً اطير بهِ الى تلك المشاهد السعيدة . غير ان الجني اخبرني انهُ لا سبيل الي الوصول اليها الاّ من ابواب الموت التي كنت اراها تنتج عن الجسر دواماً وقال ان هذه الجزر الخضراء الجميلة التي تغطي وجه البحر امامك كالرمل الذي لا عدد لهُ وهي منازل ينزلها الناس بعد الموت لذّاتها مختلفة كمًّا وكيفاً يتفرق فيها الصالحون بحسب مشاربهم ودرجات الكمال التي احرزوها في هذه الحياة وكل جزيرة منها

فردوس موافق لحالة الذين يحلون فيهِ . أليست هذه المساكن يا مرزا مما يحق ان يسعى اليهِ. أتكون الحياة شقيَّة اذا كان لك فيها مجال لانتهاز الفرصة والوصول الى هذا الثواب العظيم. أتخاف الموت الذي يحملك الى هذه السعادة العظمى . لا تقل خلق الانسان عبثاً وقد ذُخرت لهُ مثل هذه الابديَّة . ثم حدَّقت ببصري طويلاً في ما رأيتهُ وقلت لهُ اخيرًا اني ابتهل اليك الآن ان تكشف لي الاسرار المحجوبة وراء ستار الغيوم المقلة التي تغطي البحر الى الجانب الآخر من الصخر الذي يشقّ البحر الى نصفين . فلم يجبني بشيء ولما التفتّ لأعيد سؤالي رأيت انهُ قد فارقني ثم التفتّ الى ما كنت قد شاهدتهُ وتأملتهُ طويلاً وبدلاً من النهر الجاري والجسر وقناطره والجزر الجميلة لم ارَ الاَّ الوادي الطويل بجانب بغداد والثيران والغنم ترعى فيهِ يوحنا ورتبات

الفراسة في الحكايات

كلُّ من يقرأ روايات السر ارثر كونن دويل من مشاهير الروائيين الانكليز يرى في بعضها ذكر رجل اسمهُ "شرلوك هولمس" اختلقتهُ مخيلة الكاتب وجادت عليهِ بصنوف المكر واساليب الحكمة والدهاء حتى صيرتهُ مثالاً لقوة الفراسة والاستدلال وانموذجاً كاملاً للوصل بين العلل والمعلولات تدرجاً الى استجلاء الغوامض وابراز المكنونات في حوادث الجنايات

وليس الكاتب يبتكر هذه الفكرة ولا هو باول من ابتدعها في الروايات والحكايات الموضوعة بل هي فكرة قديمة جرى عليها كثيرون من الكتاب الاولين فاقتبسها منهم ومصدر هذه الفكرة الشرق ككثير غيرها مما نشأ فيهِ فاقتبستهُ الغرب منهُ . فما من احد الاَّ ويعرف حكاية الدرويش والتاجرين وهي شرقية الاصل ترجمت الى جميع اللغات الغربية ومآلها ان درويشاً كان يسير في الصحراء فصادف تاجرين فقال لما انكما اضعتما جملاً فقالا نعم . قال الم يكن اعور العين اليمنى واعرج الرجل اليسرى . قالا بلى . قال ألم يكن فاقدًا سنًّا من اسنانهِ. قالا بلى . قال ألم يكن محمَّلاً عسلاً عن جانب وقمحاً عن الجانب الآخر . قالا بلى ولا ريب انك رأيتهُ فهلاَّ دللتنا عليهِ ولك الاجر والثواب . قال يا صاحبيَّ صدَّقاني اني لم أبصر جملكما ولم اسمع بهِ الاَّ منكما . قالا والله ان امرك عجيب فاين الجواهر والحلي التي كانت في حملهِ قال اني لم انظر جملكما ولا حليكما . فاخذا بضبيطهِ وجرَّاهُ الى القاضي فلم يثبت عليهِ غشٌّ ولا سرقة . فاتهماهُ بالسحر فدافع عن نفسهِ قائلاً انما صرتني دهشتكما وأرى انكما مسافران